اتجاهات حديثة في دراسة تاريخ الانباط

الدكتور احمد فخري

مقدمة ★

للموقع الجغرافي لأي بلد من البلاد أثر قوي على سير أحداث التاريخ فيه ، ومنذ فجر التاريخ حتى أيامنا الحالية لعبت الاردن دورا غير قليل في سير الأحداث في هذه المنطقة من بلاد الشرق العربي لانها بحكم موقعها الاستراتيجي الهام تتحكم في طرق المواصلات بين بلاد المنطقة سواء في السلم أو في الحرب ٠

ويضطر المهتم بدراسة تاريخ الأردن أو آثاره الى دراسة أحداث وآثار البلاد المجاورة لان الاردن لا يستطيع أن يبقى بمنأى عن احداث المنطقة ، ولا يمكن أن يبقى بعيدا عن الصلة بجيرانه والتأثر الثقافي بهم ٠ ولست أقصد من هذا البحث تقديم عرض سريع لتاريخ الأردن في العصور القديمة ، وانما أقصر حديثي في موضوع الأنباط على ناحية واحدة منه ، وهي عدد محدود من بعض الاتجاهات الحديثة في دراسة تاريخهم ٠

ولكن قبل التحدث عن تلك الاتجاهات أرى لزاما علي ، كتمهيد للموضوع ، أن أتحدث حديثا عاما ، وفي حيز ضيق ، عن الأنباط أنفسهم وأذكر شيئا عن تاريخ الدراسات النبطية ، وأهم ما ظهر فيها من بحوث ، وأبدأ بالحديث عن أهمية طرق القوافل التي تمر بالاردن وأثرها في تاريخه ٠

أهمية طرق القوافل

يمتاز تاريخ الأنباط بأنه تاريخ قوم عاشوا في الجهة الشرقية من الاردن ، وتطورت حضارتهم في المنطقة نفسها ثم ازدهرت ، وجاء اليوم الذي مدوا فيه نفوذهم التجاري والسياسي والثقافي على بعض جيرانهم ٠

استقروا في أول الأمر في بلاد « أدوم » ثم « مؤاب » ، وبسطوا نفوذهم على طرق القوافل التي تمر عبرها وأهمها درب القوافل الكبير الذي كان يربط بين بعض المواقع على المحيط الهندي في جنوبي الجزيرة العربية وبين شاطيء البحر الابيض المتوسط ، تحمل قوافله تجارة الهند وما وراءها ، كما تأتي بالعطور والبخور والبان والمر من جنوبي الجزيرة من اليمن وحضرموت وتخترق بلاد اليمن ، ومنها الى الحجاز مارة بمكة والمدينة ثم العلا ومداين صالح ، ثم الى التيماء ودومة الجندل حتى تصل الى بلاد أدوم ومؤاب ، ثم تتجه شمالا الى بصرى ومنها الى غزة أو غيرها من موانيء فلسطين ، وكانت تتفرع من هذا الدرب عند كل محطة كبيرة من محطات القوافل دروب فرعية تربطه بكثير من البلاد التي في شرقي شبه الجزيرة العربية على الخليج ، وما بعدها ، كما تربطه أيضا بالموانيء التي على البحر الاحمر في الجهة الغربية ، كما تربطه أيضا ببلاد العراق وسوريا وغيرها ٠

وكان التجار يحرصون بطبيعة الحال على ألا تعود قوافلهم الا وهي محملة بكل ما تجده في أسواق الشام من بضائع ومصنوعات محلية أو مجلوبة من مصر والاناضول والعراق ومختلف بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتبيع ما حملت من بضائع في كل محطة في طريقها أثناء عودتها الى الجنوب ، ولهذا يمكننا أن نفهم بسهولة أن من يتحكم في جزء من هذا الدرب التجاري

الهام ويحصل على ما يفرضه من أتاوة أو مكوس مقابل السماح بمرور القوافل في بلاده والتعهد بحمايتها ان كان قادرا على ذلك ، يستطيع أن يجني أرباحا طائلة كما نفهم أيضا بسهولة ما كان يجنيه من يشترك في هذه التجارة ، وهذا ما فعله الأنباط ٠

لم يكن هذا الدرب هو الوحيد الذي يمر ببلاد أدوم ومؤاب ، بل كان هناك درب آخر ذو اهمية كبيرة وهو الدرب الذي يربط بلاد الشام بمصر وما وراءها من بلاد شمال أفريقيا ٠ كانت تتجمع فروع هذا الدرب في دمشق ومنها تتجه القوافل الى بصرى ثم تعبر بلاد الاردن مارة بمؤاب وأدوم ومنها الى بلدة العقبة ثم تقطع شبه جزيرة سيناء الى مصر ٠

كانت هذه القوافل تتعرض لمهاجمة قبائل البدو أثناء سيرها في بلاد مؤاب وأدوم والنقب ، ولهذا فمن الخير لاصحاب القوافل أن تكون هناك حكومة قوية أو زعماء ذوو نفوذ وسلطة حتى يتوفر لها الأمن المطلوب ولا يضير أصحاب القوافل أن تشاركهم الحكومة أو الزعماء في جزء من الربح ٠

وهناك حقيقة أخرى يجب أن لا ننساها ، وهي أن أهمية الطرق التجارية لا تقتصر على نقل السلع وتحقيق الحصول على الثروة ، بل هي في الوقت نفسه شرايين حيوية لنقل الثقافة من بلد لآخر ، وعليها تنتقل الأخبار ، وما يستجد من مذاهب وآراء ، وكان كل سوق من الأسواق التي تحط فيها بعض الوقت ميدانا لتبادل الفكر والمعرفة ٠

استقرار الأنباط في أدوم ومؤاب

استقر الأنباط في بلاد أدوم ومؤاب منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد أو أوائل القرن الرابع، وثبتوا أقدامهم فيها ولم يمض عليهم وقت طويل حتى أصبحت دروب القوافل خاضعة لسيطرتهم ٠ وتقدموا في حضارتهم ، وأثروا ، وأصبحت لهم عاصمة منيعة ومدن أخرى ، وأصبحوا مملكة يتولاها ملك مهم منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ٠

لم يكن الأنباط غافلين عما يجري حولهم من أحداث ، بل أدركوا ان وجودهم مهدد اذا لم يشاركوا في توجيه التيارات السياسية التي تهب على المنطقة ، فكانوا على صلة مستمرة بما يجري في البلاد التي تقع الى الشمال منهم في سوريا ، والى ما يحدث في شمال الجزيرة العربية، وعلى صلة وثيقة بكل ما يجري في فلسطين ،

وفي النقب وسيناء ومصر ٠ بل ان الظروف السياسية التي سادت في أيام ازدهارهم جعلتهم على صلة كبيرة ومستمرة بروما وحكام الرومان٠

كانت أعظم فترات الازدهار في تاريخ الأنباط هي الفترة التي تشمل القرن الأول قبل الميلاد والقرن الاول الميلادي ، وفي بعض فترات ذلك الازدهار زاد نفوذ الأنباط السياسي فامتد جنوبا حتى شمل مداين صالح وشمالا حتى شمل دمشق، اما نفوذهم التجاري فقد امتد الى ما هو أبعد من ذلك بكثير ٠

واذا كنت اخترت القرن الاول قبل الميلاد والقرن الاول بعد الميلاد فان تاريخهم يرجع الى ابعد من ذلك ، كما سبق القول ، ونحن نعرف أنهم كانوا أقوياء وأغنياء وأنهم كانوا قد اتخذوا البتراء عاصمة لهم في القرن الرابع ق٠م٠ ، ولكن هناك من القرائن ما يجعلنا نعتقد أن بدء استقرارهم في بلاد أدوم كان قبل ذلك بوقت طويل ٠

واذا كان الرومان قد قضوا على استقلال الأنباط السياسي عام ١٠٦ م وأصبحت بلادهم منذ هذا التاريخ تابعة لروما فان لغتهم ومظاهر حضارتهم بل وكيانهم القومي ظلت مستمرة فترة من الزمن امتدت بضعة قرون ٠

ولم يكن السبب فيما حدث للانباط راجعا فقط الى العوامل السياسية الخارجية وأهمها طبعا التوسع الروماني ، أو كان راجعا الى ما أحاط بالبيت المالك من ضعف بل ان السبب الرئيسي يرجع الى حد كبير الى تشجيع الرومان لنقل التجارة عن طريق البحر الاحمر بعد أن عرفوا سر الرياح الموسمية من العرب هناك فأثر ذلك تأثيرا كبيرا على الانباط لحرمانهم من جزء كبير

مما كانوا يجنونه من أرباح يحصلون عليها من سير القوافل على الدرب الكبير ·

ومما زاد الطين بلة ، ان الاحداث السياسية التي عمت هذه المنطقة قللت من مكانة مدينة البتراء ونقلت مركز الاهمية التجارية الى مدينة تدمر التي أصبحت المحطة الرئيسية على الدرب او الدروب التي تخترق الصحراء وتربط موانىء البحر الابيض المتوسط بداخل البلاد السورية ثم تسير الى العراق وما وراء العراق ·

الأنباط في آخر أيامهم

ولكن بالرغم من اضمحلال أهمية البتراء ، ثم زوال الأنباط فيما بعد كقوة سياسية تسيطر على المنطقة فان بلادهم ظلت عامرة ، وبالرغم من استمساك بعضهم بديانتهم القديمة وعبادة ما ألفوه من معبودات ، فقد وجدت الديانة المسيحية قبولا من البعض الآخر في وقت مبكر ، ولم يحل القرن الرابع الميلادي حتى كانت المسيحية [1]. قد قويت بينهم الى الدرجة التي أصبح فيها للبتراء أسقف اشترك في مجمع نيقيا عام ٣٢٥ كما ورد أيضا اسم أسقف البتراء في مجمع «ساردیس» [2] · وكان لذلك الأسقف من الشجاعة ما جعله يقف الى جانب « أثناسيوس » في الصراع الذي كان ناشبا في الكنيسة المسيحية اذ ذاك ·

أما آخر الوثائق التي وصلت الى أيدينا وفيها اشارة الى المسيحية فهي الاشارة الى أن أحد أساقفتها كان ابن أخ للامبراطور الروماني « موريس » الذي حكم بين عامي ٥٨٢ و ٦٠٢ ميلادية ·

ولم يمض وقت طويل حتى خضعت البلاد لجيوش المسلمين وانتشر الاسلام ، وزاد التدهور الذي كان قد أخذ يسود في المنطقة ، ولم نعد نسمع شيئا عن المسيحية أو المسيحيين في البتراء، بل يكاد الانسان يعتقد أن أكثر أهل البتراء تركوها في القرن السابع الميلادي ، وانتقلوا الى القرى القريبة من موارد المياه الثابتة في وادي موسى وما جاوره ·

وفي أيام الحروب الصليبية ، جعل الصليبيون بلدة الكرك نقطة ارتكاز لتهديد طريق الحج وقوافل التجارة ، ولكنهم لم يعينوا أسقفا لها ·

ونسي الناس الأنباط أو كادوا ، وتعرضت معابدهم ومسارحهم ومنازلهم وقبورهم وحصونهم وما ابتدعوه من أعمال الري وتخزين المياه في البتراء وفي عشرات القرى النبطية الاخرى الى الخراب والتدمير سواء من تأثير مرور الزمن والاهمال أو على يد البدو الذين ظلوا يعيشون في المنطقة ·

وانتهت مملكة الصليبيين عام ١١٨٧ ميلادية ، ولكن ذلك لم يكن له أي رد فعل على أحفاد الأنباط ، ومع ذلك فقد ظل ذكر المنطقة يتردد في كتابات بعض الحجاج المسيحيين الذين كانوا يأتون من بلادهم لزيارة بيت المقدس والأماكن المقدسة الاخرى التي ارتبط اسمها بحوادث هامة في كتاب العهد القديم أو كتاب العهد الجديد على السواء لان بعض أولئك الحجاج كانوا يحرصون على زيارة جبل هارون وعيون موسى ثم يواصلون سفرهم الى سيناء التي شهدت خروج بني اسرائيل ثم يذهبون الى مصر ·

وفي بعض ما كتبه جغرافيو العرب ومؤرخوهم اشارات كثيرة الى الاردن عامة والى المنطقة الجنوبية أيضا ، ومن بين تلك الاشارات ما ذكره ياقوت في كتابه « معجم البلدان » الى « سلع التي

---

١) كان الوثنيون والمسيحيون يعيشون معا في البتراء حتى القرن الخامس الميلادي على الاقل اذ نعرف من قصة « معجزة الراهب برسوم » المذكورة في تاريخ الكنيسة والتي حدثت بين اعوام ٤١٩ و ٤٢٢ ما يؤكد حياة الوثنيين والمسيحيين في مكان واحد — وتتلخص هذه المعجزة في انه بمجرد ان رفع الراهب برسوم يديه بالدعاء سقطت الامطار ونجا الناس .
ونعرف مما كتبه بعض الحجاج المسيحيين في القرن السادس الميلادي ان الانباط في سيناء كانوا يعبدون الشمس وكانت للاله « ذو الشرى » مكانة ممتازة بينهم .

٢) مدينة ساردیس (Sardis) في آسيا الصغرى على مسافة ٨٠ كم شرقي ازمير ، وهي مدينة قديمة ، وكانت عامرة في العصر الحديدي وازدهرت كثيرا في العصر اليوناني الروماني ولعبت كنيستها دورا هاما في ايام المسيحية .

في وادي موسى » وهي دون سلع البتراء ، وينطبق عليها أيضا الاشارة الى حصن « أسويط » الذي ذكره النويري في وصفه لرحلة السلطان بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) وهي الرحلة التي قام بها من مصر الى الكرك مارا على مقربة من البتراء ، فمن المحتمل جدا أن يكون حصن أسويط هو ما نجد بقاياه في المكان المعروف باسم الحابس الى الشمال من السيق [٣] الذي يقود الى داخل مدينة البتراء ٠

ومما هو جدير بالذكر أن النويري ذكر اسم المنطقة تحت كلمة « بدرية » وسمى الجبال التي حول البتراء « جبل بدر » وهو تحريف مقبول لكلمة البتراء اليونانية الأصل ومعناها «الصخرة» وكلمة « سلع » معروفة في اللغة العربية [٤] ، وهي أيضا معروفة في العبرية ، وورد ذكرها في التوراة ٠ وكانت المنطقة تعرف أيضا باسم « الرقيم » وقد وردت مكتوبة « رقم » في النقوش النبطية وذكرها أحد الحجاج المسيحيين عند وصفه لرحلته التي قام بها عام ١٢١٧ ميلادية اذ أشار اليها عندما ذكر أنه تقدم في سيره مع القافلة ، وترك على يمينه « أرخيم التي كانت في وقت ما عاصمة للعرب » وهو يشير دون شك الى البتراء ٠

وظلت الأمور تسير على وتيرة لا تكاد تتغير ، وأصبحت الكلمة العليا لقبائل البدو ، ومن قبل الحياة الى جوارهم ، لا يكاد الامر يستقر فيها ولكن سير القوافل ظل كما كان حتى حل القرن التاسع عشر عندما زار المنطقة رحالة من نوع آخر فكانت زيارته فاتحة عهد جديد في تاريخ البتراء وتاريخ الأنباط ٠

زيارة بوركهارت لآثار البتراء

أخذت أوروبا في القرن الثامن عشر تتطلع الى الالمام بكل ما يمكن معرفته عن بلاد الشرق والبلاد الاسلامية تمهيدا لما كانت ترمي اليه من استيلائها على خيراته ومد نفوذها السياسي الى بلاده كما حدث في الهند من قبل ، ولهذا شجعت بعض الحكومات والجمعيات العلمية عددا من الرحالة المثقفين للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات ٠ ومن ألمع الاسماء بين أولئك الرحالة اسم شاب سويسري مستشرق وهو «جون لويس بوركهارت» تعلم اللغة العربية واعتنق الاسلام وأصبح يتسمى باسم « الحاج ابراهيم » وكان يعمل لحساب الجمعية الجغرافية البريطانية ٠

كان بوركهارت في دمشق عام ١٨١٢ وصحب القافلة التي كانت في طريقها الى القاهرة وأثناء سفرهم في الاردن سمع بوركهارت من دليله المرافق له ومن أشخاص آخرين في القافلة عن وجود آثار كثيرة في مكان في الجبال عند وادي موسى ، وقد أثبت ذلك في مذكراته اليومية في يوم ٢٢ أغسطس (آب) في كثير من الحماس وقال أنه مشتاق كل الشوق لرؤية وادي موسى وما فيه من آثار [٥] ٠

أراد بوركهارت أن يتخلف في عيون موسى ثم يسير بعد ذلك رأسا الى القاهرة دون الذهاب الى العقبة ، ولكن الدليل رفض ذلك رفضا باتا تجنبا لما عسى أن يتعرضا له من أخطار في الطريق ، ولكن هذا الرفض لم يثنه عن عزمه ٠ كان بوركهارت قد سمع ممن حدثوه أن الطريق الى أعلى جبل هارون يمر بين الآثار ، ولهذا دبر في نفسه أمرا ٠ فعندما كانت القافلة تسير بين الشوبك والعقبة ومروا على مقربة من وادي موسى قال أنه نذر لله ويجب أن يوفي به وهو أن يذبح عنزا عند قبر النبي هارون ، فلم يجرؤ الدليل على الاعتراض خوفا من اغضاب النبي هارون واستنزال اللعنة على نفسه فقبل مرافقته ٠

---

٣) كلمة « السيق » التي يستخدمها الناس في الوقت الحاضر وتتردد في جميع المؤلفات ليست ، في رأي عدد من العلماء ، الا تحريفا من الاجانب لكلمة « الشق » التي ما زال يستخدمها اهل المنطقة كاسم لذلك الطريق الضيق بين الصخور والذي يتحتم على زائر البتراء ان يسلكه للوصول الى قلب مدينة البتراء ٠

٤) كلمة « سلع » معروفة في اللغة العربية بمعنى الشق بين الجبال ، وتطلق احيانا على المناطق الجبلية الملأى بالاخاديد ٠ وقد ذكر ياقوت في « معجم البلدان » أماكن كثيرة كان يطلق عليها « سلع » ووصف التي عند وادي موسى بأنها حصن قوي ٠
(Yaqut, Mu'gam al-Buldan, 111, p. 117)

٥) John Louis Burckhardt, Travels in Arabia, (London, 1829 ٠

ويذكر بوركهارت أنهم تركوا القافلة على أن يلحقو بها فيما بعد وذهب وبصحبته دليله الى مكان يذكره تحت اسم « werak وراك » وهو خطأ في قراءة ما كتبه اذ كان يقصد دون شك « الوعيرة » القريبة من وادي موسي [٦] ، ومن هذه القرية استأجر أدلاء محليين رافقوه الى عيون موسى ونصحوه أن يذبح العنز هناك ولا داعي للمشقة ، وقالوا له بأن هذا هو ما يفعله الحجاج الاخرون ، ولكنه صمم على أن يوفي بنذره كاملا ولا يذبح العنز الا عند القبر نفسه فوق الجبل ، وأخيرا وصلوا الى قرية الجي واستأجر شخصا من أهلها يعرف الطريق الصاعد الى القبر ولكي يحمل العنز وقربة ماء ٠

ويستمر بوركهارت في سرد قصته فيقول أنه بعد أن ترك القرية بدأت الآثار تظهر أمامه ولكن لم يكن في استطاعته أن يقضي وقتا طويلا في زيارتها خوفا من اثارة شكوك الدليل ، وعلى أي حال فقد أشار الى المقابر المكعبة قبل مدخل السيق كما ذكر أيضا مقبرة المسلات ، ومر في السيق وزار الخزنة ووصف واجهتها وعمل رسما تقريبيا لها ٠ولم يكتف بذلك بل زار بعض المقابر الاخرى، ومن وصفه يمكننا أن نقول أنه زار المقبرة المعروفة باسم مقبرة الجرار و « المقبرة الكورنثية » كما زار بقايا المعبد ٠

وكان اهتمام بوركهارت بالآثار واستغراقه بعض الوقت في زيارتها بدلا من القاء نظرة عابرة جاهلة عليها جعلت دليله يشك في أنه من الباحثين عن الكنوز وأنه جاء الى هذا المكان ليسرق ما فيه من أموال وجواهر فرفع بندقيته وهدده بأنه سيطلقها عليه اذا استمر في زيارة الآثار ٠ ولكن ذلك لم يثن بوركهارت عن عزمه واستمر في سيره بين الخرائب حتى وصل الى مكان يقع الى جنوبي « أم البيارة » حيث يظهر جبل هارون واضحا ، ويقول العالم الشاب أن الشمس كانت على وشك المغيب وكان متعبا منهوك القوى فقرر أن يذبح العنز هناك ثم عاد أدراجه في الظلام الى قرية الجي ٠ ويختم بوركهارت مذكراته فيقول بأنه يحتمل جدا أن تكون الآثار التي زارها عند وادي موسى هي مدينة البتراء ، ويزيد على ذلك قوله بأن « يوسيبيوس » [٧] ذكر أن قبر هارون قريب من البتراء ٠

كان بوركهارت أول أوروبي تقع عيناه على آثار البتراء بعد أيام الصليبيين وأول من لفت أنظار العالم اليها بعد أن لفها النسيان ، فأخذ الرحالة الآخرون والزائرون المثقفون يذهبون اليها ، وكثيرا ما نقرأ في كتاباتهم مدى ما كانوا يلاقونه من مشقة ومضايقات وابتزاز للمال من سكان المنطقة سواء ممن كانوا يسكنون في وادي موسى أو من كانوا يعيشون في كهوف البتراء نفسها ، ولكن مع مرور الزمن ، وبعد أن مضى أكثر من مائة سنة أصبحت زيارة الآثار شيئا مألوفا ، بل أصبحت مورد رزق هام لأهل المنطقة كلها ، أما أولئك الذين كانوا يسكنون في المقابر وفي شعاب الوديان داخل منطقة البتراء نفسها فما زالوا هناك ، وأصبحت الآثار المورد الاكبر لهم للحصول على المال سواء ما يسرقونه منها أو ما يحصلون عليه من أجور كعمال للحفائر وحراس للمنطقة [٨] ٠

تقدم الدراسات النبطية حتى بداية الحرب العالمية الاولى

لم يقصر المهتمون بدراسة الآثار في تسجيل آثار البتراء وغيرها منذ بدء زياراتهم لها في القرن الماضي ، ولكن أكثر ما كتبه الرحالة

---

٦) الوعيرة على مسافة كيلومترين من الاستراحة الحكومية في وادي موسى — وفيها بقايا الحصن الذي شيده الملك « بودوان الثاني » عام ١١٢٧ ميلادية اثناء الحروب الصليبية ٠

٧) « يوسيبيوس » كتب تاريخه حوالي عام ٣٢٧ ميلادية ٠

٨) لم تصبح زيارة آثار البتراء آمنة تماما الا بعد عام ١٩٢٥ ٠ كان سكان منطقة وادي موسى لا يرحبون بزيارة الاجانب للاثار حتى لا يترتب على ذلك تدخل الحكومة في شؤونهم ، ووصل بهم الامر الى حد مهاجمة اول نقطة بوليس من جنود الفرقة العربية الذين ارسلتهم حكومة شرقي الاردن لحماية زائري الاثار وقتلوا افرادها القليلين ، ولكن موقف الحكومة الحازم وانزال العقاب الشديد على المعتدين كان درسا هم في اشد الحاجة اليه ٠

الاوائل اقتصر في أغلب الحالات على الوصف العام وترديد الاعجاب الشديد بالمكان وبالآثار . ونشر بعض رسوم لها . ولكن حدث في عام ١٨٦٤ أن زارها الدوق «دي لين» (Duke de Lynes) ونشر عن آثارها مؤلفا ما زالت له مكانته رغم مضي أكثر من قرن من الزمان على كتابته . لم يكتف « دي لين » بوصف ما رآه من آثار وعمل رسوم لها بل عقد مقارنات وخرج من دراساته بأنها من العصر النبطي أي أنها بدأت في القرن الثاني قبل الميلاد ولكن المباني الكبيرة التي يظهر فيها تأثير العمارة اليونانية والرومانية ظهورا واضحا فأن تاريخها الى القرن الأول قبل الميلاد وما تلاه . وهو تقدير صحيح بوجه عام .

واحتلت آثار الأنباط جزءا كبيرا من المؤلف الهام الذي نشره « كليرمون جانو » (Ch. Clermont - Gannean) الذي كتبه في ثمانية أجزاء ظهرت بين أعوام ١٨٨٨ و١٩٢٤ وفيما كتبه « رينيه ديسو » (R. Dussaud) مؤلفه عن رحلته الأثرية في مناطق الصفا وجبل الدروز ، وقد نشر في باريس عام ١٩٠١ وكذلك مؤلف العالم « ماكليه » (F. Macler) وهو تقرير عن مهمته العلمية التي أوفد فيها لدراسة المناطق الصحراوية في وسط سوريا والذي نشره في عام ١٩٠٤ . ولكن أهم المؤلفات عن آثار هذه المنطقة من العالم حتى وقت نشره هو المؤلف المعروف باسم « الولاية العربية » لمؤلفيه برنيو فون دوماسفسكي [٩] ، ومن أهم المؤلفات التي ظهرت أيضا قبل الحرب العالمية الاولى مؤلف الأبين « جوسان وسافيناك » عن آثار العلا ومداين صالح ، وفيها كثير عن الآثار النبطية ، وتكاد تكون في المرتبة الثانية في الاهمية بعد البتراء .

كانت كل هذه المؤلفات التي ذكرناها تتحدث عن آثار الأنباط كجزء من آثار منطقة كبيرة . أما أول مؤلف علمي جاد عن آثار البتراء وحدها فهو مؤلف العالم الالماني « دالمان » وعنوانه : « البتراء ومبانيها المقدسة المنحوتة في الصخر » .

G. Dalman, Petra und Seine Felsheiligtumer, Leipzig, 1908.

ثم نشر بعده كتابا آخر في عام ١٩١٢ وفيه المزيد من البحوث عن البتراء وهو كتاب

Neue Petra-Forschungen und der heilige Felsen von Jerusalem, Leipzig, 1912.

وما زالت بحوث دالمان في هذين الكتابين وما نشره فيهما من رسوم ومقاطع لما فيها من آثار أهم مصدر حتى الان وما زالت آراؤه في تاريخ أكثرها قبولا بوجه عام لدى أكثر رجال الآثار [١٠] .

هذه هي أهم المؤلفات التي نعتبرها حتى الان المصادر الرئيسية حتى قيام الحرب العالمية عن الآثار النبطية والنقوش وغيرها بوجه عام ، ولكن الى جانب هذه المؤلفات توجد معلومات أخرى ومجموعات من النقوش النبطية في مؤلفات علماء آخرين مثل « دوتي » (Charles Daughty) و « هوبر » (Charles Huber) و « دي فوجيه » (Melchior de Vogue) و « أويتنج » (Euting) و « شابو » (Jean Baptiste Chabo) و «ليتمان» (Enno Littmann) وقد نشر كل ما ظهر منها حتى عام ١٩٠٧ في الجزء الاول من سجل النقوش السامية (Corpus Inscripticonum Semiticarum) أما ما استجد بعد ذلك حتى عام ١٩٦٥ فهي في الجزء الثاني .

بعد الحرب العالمية الاولى

دخلت الدراسات النبطية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى مرحلة جديدة فلم يعد من السهل اصدار مؤلفات ضخمة في عدة مجلدات باسم شخص واحد ، وقنع العلماء بنشر بحوثهم في مقالات في المجلات العلمية الخاصة بعلوم الاستشراق .

---

٩) ما زال هذا المؤلف يحتل مكانة كبيرة بين المصادر العلمية ومرجعا لا يمكن الاستغناء عنه لكل من يريد دراسة تاريخ المنطقة وآثارها ، وقد جمع فيه المؤلفان خلاصة ما كتبه القدماء او المحدثون مع تحليل لما ورد فيها من معلومات وآراء ..

١٠) نتائج بحوث دالمان والرسوم الهندسية التي قام بعملها المهندس المعماري (نيوتون) منشورة باللغة الانكليزية ايضا في حوليات جمعية الآثار الفلسطينية عام ١٩١١
(Annual of Palestine Exploration Fund, 1911).

ومنذ عام ١٩٢٥ ، بعد استقرار الحالة في منطقة البتراء ، بدأ بعض الأثريين يفكرون في القيام بعمل حفائر منتظمة ولمدد طويلة في البتراء فكانت حفائر الابستاذ «هورسفيلد» والسيدة زوجته (G. and A. Horsfield) منذ عام ١٩٢٩ وكذلك حفائر نلسون جلك (Nelson Glueck) بالاشتراك مع مسز هورسفيلد ، وذلك أهم ما جرى من حفائر بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت دائرة الآثار نشاطا ملموسا في حفر المناطق الاثرية سواء في البتراء أو في المناطق الاخرى ، واستن مديرها اذ ذاك «لانكستر هاردنج» (G. Lankester Harding) منذ عام ١٩٥٤ سنة جديدة وهي اشتراك الدائرة مع علماء من جمعية الآثار البريطانية في القدس أو مدرسة الآثار الامريكية للبحوث الشرقية في القدس ليقوموا بالاشراف على الحفائر ، وتمدهم دائرة الآثار بكل ما يلزمهم من عمال وأدوات العمل والاقامة ، وقد حظيت البتراء بعناية كبرى ولكن كانت هناك حفائر أخرى ناجحة مثل حفائر « خربة التنور » التي أشرف عليها « نلسون جلك » وقد سار المرحوم الدكتور عوني الدجاني على نفس السياسة فارتبط أسماء عدد من البريطانيين والامريكيين باسم البتراء ومن أهمهم « كيركبريد » (D. Kirkbride) و « رايت » (C. R. H. Wright) و « بار » (F. J. Par) و « هاموند » (Philip C. Hammond) و «بنت» (C. M. Benett) ونشر كل منهم نتائج بحوثه في حولية دائرة الآثار العامة الاردنية وغيرها من المجلات العلمية ٠

ومن الخطأ أن يعتقد انسان أن الذين يقومون بالحفائر ويعثرون على آثار جديدة أو نقوش جديدة هم وحدهم الذين يقومون بالكتابة عنها علميا ٠ فان العثور على آثار مدينة أو معبد أو بعض اللوحات والتماثيل والنقوش شيء ودراستها دراسة علمية كاملة شيء آخر ٠ فمن المحتمل جدا أن يكون العالم الذي يرأس الحفائر متخصصا في تاريخ احدى الحضارات مثلا أو متضلعا في لغة من اللغات القديمة ، ولكنه يعثر على أشياء تحتم عليه الاستعانة بآخرين ٠

وعلى أي حال ففي كل ميدان من ميادين الدراسات القديمة نجد علماء يحتلون أرفع مكانة في دراساتهم في التاريخ أو في اللغة أو في الديانة أو في الحضارة دون أن يكونوا قد قاموا مرة واحدة بالاشتراك فى الحفائر بل أن بعضهم لم يقدر له ، ولو مرة واحدة في حياته ، زيارة البلد الذي ظهرت فيه تلك النقوش ، وانما تعتمد بحوثهم كلها على ما سبق أن نشره الآخرون وما يصل اليه من زملائه الاخرين ٠

وقبل أن أنتقل من الحديث عمن وضعوا أسس الدراسات النبطية ومن لمعت أسماؤهم فيما تم من حفائر أرى من الاوفق تلخيص موقفنا الان من الدراسات النبطية ٠

أهم ما يجب معرفته عن الدراسات النبطية في الوقت الحاضر

نجد في ميدان النقوش أن ألمع اسمين هما « ستاركي » (J. Starcky) و « ميليك » (J.T. Milik) وقد نشر كل منهما مقالات كثيرة عن النقوش وقد عهدت اليهما الاكاديمية الفرنسية بنشر الجزء الثاني من النقوش النبطية في الـ CIS (Corpus Inscriptionum Semiticarum ومنذ سنوات قلية ظهر بحث ممتاز للأب « ستاركي » عن الأنباط في ملحق قاموس التوراة Supplement au Dictionnaire de la Bible, Fasc. 39 (1964) art«Petra et La Nabaténe», Col. 886 - 1017 الذي صدر عام ١٩٦٤ ٠ وهو بحث علمي جدير بصاحبه جمع بين دفتيه خلاصة ما توصل اليه العلماء ونتائج بحوثه الشخصية ٠

أما في ميدان اللغة فما زال مؤلف « كونتنو » الذي صدر في جزئين عامي ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ المصدر الرئيسي حتى الان Contineau, L Nabatien, 2 Vols. Paris,

ولكنا نجد أيضا المزيد عن هذا الموضوع في كتاب أحدث منه وهو كتاب العالمين « جان » و « هوفسيجر Jean et Hofziger, Des inscriptions semitique de (Leiden, 1960).

وفي ميدان النميات (العملة) توجد اشارات كثيرة في بعض البحوث ولكن لم يصدر في الاعوام القريبة أي بحث يحل محل مقال «ديسو» R. Dussaud, «Numismatique des rois de Nabaténe», Journal Asiéatique 1904, L, p. 189 — 238.

وكذلك ما ورد في القسم الخاص بالعملات النبطية في المتحف البريطاني G. F. Hill' Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persisa, (British Museum). London. أما في الديانة فلدينا عنها شيء غير قليل في البحوث التي نشرها « ليتمان » و « ديسو » و « ستاركي » وغيرهم ، وأحدث ما ظهر في هذا الموضوع ما كتبته « ماريا هوفنز » وذلك في مقالها عن ديانات شمال ووسط الجزيرة العربية في المؤلف الكبير المعروف تحت اسم « قاموس الميثولوجيا » الذي ظهر في عام ١٩٦٢ . H. W. Haussig, Wôterbuch der Mythologie (1965). وفي ميدان الآثار بوجه عام ، وتاريخ الانباط فان أحدث المؤلفات هو كتاب « نلسون جلك » الذي أشرنا اليه من قبل واسمه الكامل Nelson Glueck. Deites and Dolphins: The Story of the Nabataeans وقد نشر فيه نتائج حفائره في خربة التنور ، وقارن ما عثر عليه في تلك الحفائر بما يماثلها أو يشابهها من مناطق كثيرة أخرى وبالرغم مما يوجد في هذا الكتاب من مآخذ فهو من الكتب التي لا يمكن تجاهلها عن آثار الانباط وتاريخهم، ويحتوي على أسماء أهم المراجع كما نجد فيه أيضا نتائج دراسات هذا العالم في حصر المناطق الاثرية النبطية في الاردن وفي صحراء النقب وسيناء .

موضوعات للمناقشة

والان ، وبعد هذا العرض السريع لبعض النواحي في الدراسات النبطية ومدى التقدم فيها وأهم ما ظهر فيها من بحوث هي في الواقع متصلة بحضارات سامية أخرى مثل حضارة السبأيين ، والثموديين ، واللحيانيين ، والصفويين ، والتدمريين ، والعبرانيين ، والاراميين ، والعرب وغيرهم ، يحق لنا أن نقف لنتساءل عما اذا كان أولئك العلماء متفقين تماما على جميع النقاط . والجواب على ذلك أن الدراسات النبطية سارت في الطريق الذي تسير فيه كل الدراسات المماثلة ، ولكنها لا زالت في مستهلها حتى الان .

بدأت هذه الدراسات بسيطة ومحدودة وعلى هامش الدراسات السامية الاخرى ، ثم جاء اليوم الذي وجدت فيه من يعنى بها عناية خاصة ،وذلك بوضع المؤلفات الجادة الرصينة عن آثارها ، وبخاصة آثار البتراء وتسجيل جميع النقوش النبطية ، أينما كانت ، وقد تم الجزء الاكبر من ذلك قبل بدء الحرب العالمية الاولى ، ووجدت من أقبل عليها من كبار علماء الاستشراق ، وتلقت هذه الدراسات مددا جديدا من نتائج الحفائر في الاردن وخارج الاردن ، وكان هذا مددا جديدا يؤكد أحيانا ما سبق الوصول اليه من نتائج ، وفي أحيان أخرى يثير الشك فيما سبق قبوله أو يهدمه ، كما أخذنا نقف على معلومات كثيرة جديدة في بعض النواحي الحضارية ، وبخاصة في الفنون .

وفي مثل هذا البحث لا يمكن الدخول في التفصيلات ، واكتفى بذكر بعض الاتجاهات الحديثة في دراسة تاريخ الانباط مكتفيا بالخمسة الآتية : ـ

أ ـ أصل الأنباط وبدء استقرارهم في بلاد ادوم ومؤاب .
ب ـ أين كانت أول عاصمة لهم ؟
ج ـ مدى انتشار الفن النبطي .
د ـ الخط النبطي والخط العربي .
هـ ـ هل اندثرت لغة الانباط اندثارا تاما ؟

ولنبدأ الان مناقشة النقطة الاولى منها .

أصل الأنباط وبدء استقرارهم في بلاد أدوم ومؤاب

الانباط عرب ، ولا شك في ذلك على الاطلاق ، ولكن هل كانوا من سكان المنطقة الاصليين أم أتوا من مكان آخر ؟ والجواب على ذلك أنه من المتفق عليه أنهم أتوا من شبه الجزيرة العربية ، ولكن الجديد في الموضوع هو تحديد المنطقة التي كانت في يوم من الأيام موطنهم الاصلي الذي نزحوا منه .

ان دراسة لغتهم وعاداتهم وديانتهم ، وبعض مظاهر حضارتهم لم تحل هذه المشكلة حلا تاما حتى الان ، بل يمكننا أن نقول أنها عقدتها بعض الشيء . فهناك رأي يقول بأنهم أتوا من نجد ، ورأي ثان بأنهم هاجروا من حضرموت ، والرأي

الثالث أنهم هاجروا من اليمن ، واني أميل شخصيا الى قبول الرأي الاخير ٠

لم يكن أولئك القادمون بدوا من الصحراء ويجهلون الحضارة ، بل كانوا ، أو كان بعضهم على الاقل ، يعرفون الزراعة وبعض أساليبها المتقدمة ويعرفون أيضا كيف يستفيدون من مياه الامطار وذلك باقامة السدود ، واقامة خزانات المياه ، المفتوحة منها والمغلقة ، وبالرغم من أنهم كانوا يميلون لحياة البداوة بوجه عام الا أن فريقا كبيرا من بينهم كان يميل الى الحياة المستقرة في قرى أو مدن آمنة ٠

ومن الثابت الان أنهم لم يأتوا من موطنهم الاصلي في جنوبي الجزيرة العربية الى أدوم ومؤاب مباشرة بل استقروا فترة من الزمن في الحجاز ، وقد تركت تلك الاقامة التي امتدت فترة غير قصيرة ، أثرها فيهم اذ ألفوا عبادة الآلهة التي وجدوها في موطنهم الجديد في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ، فلما نزحوا من ذلك الموطن بعد أن أقاموا على الاقل قرنا من الزمان هناك ، حملوا معهم آلهتهم الجديدة وبعد أن كانوا قد تركوا عبادة آلهتهم التي كانت في جنوبي الجزيرة ٠

لم تكن المنطقة التي حلوا فيها ، وهي بلاد أدوم ومؤاب خالية من السكان بل كانت عامرة بأهلها ، وكانت قد شهدت في عصور سابقة حضارات قديمة ، كانت على درجة من التقدم منذ الالف الثالث قبل الميلاد ولم تكن بمعزل عن تيار النفوذ المصري في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ، وقامت فيها مدن ودويلات صغيرة في ذلك الوقت وفي أوائل الالف الاول قبل الميلاد كما نعرف من التوراة ومن نتائج الحفائر اذ عثر على كثير من آثار العصر الحديدي في كثير من الاماكن في هذه المنطقة ٠

وحدث مع الانباط عند قدومهم ما يحدث دائما في مثل هذه الظروف ، وهو تأثر القادمين الجدد بالسكان القدامى ،وظهور نوع من الثقافة المشتركة بعد أن يتم الاختلاط بين الاثنين ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الاستيعاب ٠

وهنا نقف أمام تساؤل جديد وهو أصل أو معنى كلمة « نبط » أو « أنباط » ٠ كان لقب ملوك الانباط هو « ملك النبط » فهل كان اسما للمكان أم اسما للقبيلة أو القبائل الجديدة التي وفدت أو كان اسما لقوم عاشوا في المنطقة من قبل ؟

يجد القارىء في المؤلفات التي ظهرت عن الانباط أن أول اشارة الى اسمهم وردت في التوراة ، في سفر التكوين في الاصحاح ٢٥ الآية ١٢ ـ ١٣ عند الحديث عن سيدنا ابراهيم وابنه اسماعيل ٠ فقد ذكرت التوراة أن أول من ولد لاسماعيل هو ابنه « نبايوت » وتكرر ذكر هذا الاسم في الاصحاح (٢٨) الآية ٨ ـ ٩ عندما ذهب « عيسو » ابن ابراهيم الى اسماعيل وتزوج « مهالات » أخت « نبايوت » أي تزوج من بنت أخيه ٠

وبالرغم من أن عيسو هو المذكور في التوراة بأنه « أبو الادوميين » (١١) فان الاتجاه العلمي الحديث في السنوات الاخيرة يشك في أن الانباط المعروفين هم المذكورون في التوراة أو أن أصل اسمهم مشتق من « نبايوت » رغم التشابه بين الكلمتين (١٢) ٠

---

١١) لم ترد كلمة « ادوم » في التوراة كاسم لمكان او منطقة جغرافية محدودة وانما وردت كاسم قوم او شعب ، فنجدها مثلا تذكر كبلاد ادوم ، وكحقل ادوم ، وبرية ادوم .. الخ . وهناك اختلاف في الرأي بين العلماء على معنى كلمة ادوم فيفسرها البعض على انها اسم اله (مثلا : عبد أدوم) ، واحيانا ان معناها احمر كصفة للون احجار المنطقة وبخاصة في المنطقة الشرقية من وادي عربة ويفضل البعض تأكيد اصلها الى ما ورد في التوراة من ان عيسو التوأم الاكبر لرفقة ولد احمر اللون ، ولكنا نعرف ايضا انه لم يسمى « ادوم » .
ومن المعروف ايضا ان اسم « ادوم » ورد في النصوص المصرية القديمة كما ورد ايضا في النصوص الاشورية وكان ينطق « او ـ دو ـ مو » ويمكن تفسيرها بأنها مشتقة من كلمة بمعنى « يخرج » او « ينتج » وربما اصبحت فيما بعد بمعنى « ارض » او « تربة » .

١٢) هذا رأي نلسون جلك في كتابه Deities and Dolphins,

ويتكرر هذا الشك فيما سبق ان اتجه اليه بعض العلماء من أن الانباط جاء ذكرهم في نص آشوري من عهد الملك « أشور بانيبال » (٦٦٨ ـ ٦٦٣ ق٠م) اذ ورد اسم « النبایاتين » (Nabaiteans) بين من أخضعهم في حروبه ضد العرب ، ولكن ليس هناك ما يعزز القول بأنهم أجداد الانباط ٠

واذا رجعنا الى اللغة العربية فأنا نجد أن «نبط» تدل على الماء عندما يخرج من باطن الارض ، ثم تطور معناها فأصبحت بمعنى يظهر أو يتجلى [١٣] ٠

والخلاصة أن كلا من الموطن الاصلي للانباط وأصل اسمهم ما زالا موضوعين مفتوحين للمناقشة ، وكل ما نستطيع قوله ، حسب معلوماتنا الحالية أن « النبط » اسم لقوم وليس اسما لمنطقة ، كما أن أول ذكر مؤكد للانباط لا يرجع الا الى عام ٣١٢ ق٠م٠ أي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد عندما هاجم « انتيجونس » Antigonus Cyclops الانباط ونهب عاصمتهم البتراء ٠

أين كانت أول عاصمة للأنباط ؟

وأنتقل الان الى موضوع آخر هو الموضوع الخاص بالمكان الذي قامت فيه أقدم عاصمة للانباط ، هل كانت في البتراء ، أم أنها كانت في مكان آخر ٠

لا يمكننا ، حتى الان ، تحديد تاريخ معين لخروج الانباط من موطنهم الاصلي في جنوبي الجزيرة العربية ، ولا يمكننا أيضا تحديد تاريخ دقيق لمدة اقامتهم في الحجاز ، أو تحديد المدة التي قضوها هناك قبل أن يهاجروا منها الى أدوم ٠ ولكن هناك من القرائن ما يجعلنا نرجح ترجيحا كبيرا أنهم بدأوا هجرتهم الاولى في القرن السادس قبل الميلاد ، كما أنه من المرجح أيضا أنهم أتوا الى بلاد أدوم في القرن الخامس قبل الميلاد أي أن اقامتهم في الحجاز كانت نحو قرن من الزمان ، فهل اتخذوا البتراء منذ استقرارهم في بلاد أدوم عاصمة لهم ؟

كان الرأي السائد هو أن البتراء كانت عاصمتهم منذ البداية ، ولكن المتفق عليه الان هو أنه كانت للانباط عاصمة ، وأن هذه العاصمة كانت في بقعة أخرى قبل أن تنتقل الى البتراء ـ وبعبارة أخرى أن « سلع » وصخرة « أدوم » المذكورتين في التوراة تدل على مكان آخر ٠

وجد هذا الرأي من يدافع عنه بحرارة في شخص العالم الفرنسي الأب ستاركي الذي حدد مكان تلك العاصمة الاقدم في موقع أثري يسمى « بصيرة » وهي على مسافة خمسين كيلو مترا تقريبا شمالي البتراء ، وفي موقع استراتيجي هام تحيط به منطقة مزروعة تتوفر لها المياه الكافية ، وهي فوق جبل مخروطي الشكل تتوجه خرائب قديمة ويصعب الوصول الى قمته الا من طريق واحد فقط ٠ ويعترف ستاركي بأنه لا يوجد بين تلك الخرائب التي فوق قمة الجبل أي شيء من تلك المميزات المعروفة عن فن الانباط ٠

ولم يسلم هذا التحديد من النقد ، وبخاصة من « نلسون جلك » الذي رفضه وأراد بدوره أن يحدد مكان تلك العاصمة « صخرة أدوم » « بأنها أم البيارة » وهي موقع في داخل منطقة البتراء غربي الجزء الاوسط من المدينة ، وفوق تل يرتفع مائتي متر تقريبا عما حوله ٠ ويعتمد « جلك » في هذا التحديد على ما كشفت عنه حفائره التي أجراها هناك بالاشتراك مع مسز هورسفيلد ، وكشفت عن وجود خزانات للمياه وآثار يرجع تاريخها الى العصر الحديدي ،ويرى في هذا المكان أنسب موقع ، بل المكان الاوحد لسلع المذكورة في التوراة ولكن هذا الرأي وجد معترضين كثيرين ٠

---

١٣) قارن ذلك بترجمة كلمة « أو ـ دو ـ مو » التي اشرت اليها في الهامش رقم (١١) ٠

وهناك رأي ثالث وهو أن العاصمة الاقدم لم تكن في البصيرة أو في أم البيارة ، بل كانت في الـ « جايا » وتعرف الان تحت اسم « الجي » وهي ضمن منطقة عيون موسى شرقي السيق ، وفي هذه المنطقة آثار من أقدم آثار الانباط تنتشر حول القرية وفوق قمم المرتفعات المحيطة بها ٠

واذا وازنا بين المواقع الثلاثة ، وحللنا ما ساقه أصحاب هذه النظريات من أدلة ، ودرسنا اعتراضات من اعترض عليها فأنا نصل الى نتيجة تقول بأن مكان « أم البيارة » لا يمكن الاخذ به لضعف أدلة جلك وتصميمه على أن ما وجده من بقايا الجدران وقطع الفخار يجب أن تكون بقايا حصن من عهد دولة « يهودا » وافتراضه دون أسباب مقنعة اقناعا تاما ، ان هذا الحصن لم يستمر عامرا الا الى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، فان ما ساقه من أدلة لا تكفي لقبول هذه النظرية ٠

وكذلك الامر في النظرية الخاصة بموقع «جايا» فانها جزء من البتراء ولا ينطبق عليها وصف صخرة الادوميين ٠

والواقع أن كلا من « أم البيارة » و « جايا » بعيدان عن الطريق الرئيسي للقوافل ، فاذا كان الانباط الاوائل عند قدومهم مع درب القوافل قد استقروا في مكان ما فالمعقول أن يكون هذا المكان واقعا على الدرب نفسه ، وهذا ما ينطبق على موقع البصيرة فهي تقع على درب السلطان الذي يسمى ايضا طريق السلطان وفي مكان تتوفر فيه المياه والاراضي الصالحة للزراعة بعكس أم البيارة ، كما أن وجود ذلك التل المنيع يتفق مع الوصف الوارد بشأن « صخرة الادوميين » ٠

حل الانباط الاوائل حول البصيرة ، ولم يمض عليهم وقت طويل حتى ثبتوا أقدامهم وتكاثروا وانتشرت قراهم في رقعة كبيرة حولهم ، وخصوصا في المناطق التي كانت عامرة في عهد الادوميين ، ومن بينها « البتراء » وكان زعماؤهم يقيمون في البصيرة الى أن حان الوقت الذي ازدادت فيه ثروتهم وازداد نفوذهم فاختاروا مكانا أشد منعة وأكثر أمنا لهم ، ووجدوا في البتراء خير ما يحقق هدفهم فجعلوها عاصمة لهم وخصنا يحفظون فيه أموالهم ٠ ومن المحتمل جدا أن يكون انتقالهم الى العاصمة الجديدة « سلع البتراء » في مستهل القرن الرابع قبل الميلاد ٠

مدى انتشار الفن النبطي

ولنترك الان موضوع العاصمة وننتقل الى موضوع اخر وهو مدى انتشار الفن النبطي ٠

في عام ١٩٣٥ بدأ يظهر في مصر اتجاه جديد في دراسة الفن القبطي وهو الفن الذي انتشر في مصر بعد انتشار المسيحية ، وذلك بعقد مقارنات بينه وبين الفنون الاخرى في البلاد الشرقية المجاورة مثل سوريا وبين فنون بلاد أخرى مثل الهند وغيرها ٠ وكان من بين الامثلة التي ساقها بعض أولئك الباحثين وعلى رأسهم « اتيين دريوتون » (١٤) أمثلة من النقوش التي عثر عليها في بعض الكنائس المسيحية في أهناسيا المدينة في محافظة بني سويف وفي البهنسا في محافظة المينا ويرجع تاريخها الى القرن الخامس الميلادي٠

وبالرغم من أن الكثيرين من المتخصصين في الفن القبطي والمتخصصين في الفن المصري القديم رفضوا نظرية التأثير المباشر من الفن النبطي ، فان المهتمين بالدراسات النبطية تلقفوا هذا الرأي وتمسكوا به حتى الان دون نظر الى الاعتراضات لانهم وجدوا في هذه النظرية رفعا من شأن الانباط والفن النبطي (١٥) ، وفاتهم أمران على جانب كبير من الاهمية ، أولهما فارق الزمن فان ما عثر عليه في مصر كان زخارفا لكنائس من القرن الخامس حتى القرن السابع الميلادي بينما ما قدموه من أمثلة من الفن النبطي يرجع تاريخه الى القرن الاول الميلادي على الاكثر ، وينسون أن

---

١٤) E. Drioton «Art Syrien et art Copte», Bulletin de l'association de amis de L'art Copte III, (1937), pp. 29 - 40.

١٥) احدث المتمسكين بهذه النظرية « نلسون جلك » في كتابه Deities and Dolphins الذي ظهر في عام ١٩٦٥ — انظر مثلا صفحة ٥٣٤ من ذلك الكتاب .

الانباط دخلوا في فترة ضعف واضمحلال منذ النصف الثاني من القرن الاول الميلادي ، وخضعوا لحكم الرومان المباشر منذ عام ١٠٦ ميلادية ٠

أما الامر الثاني فهو أن العناصر الاصلية في الفن القبطي معروفة ، وبقي الاقباط محافظين على بعضها حتى اخر أيامهم ، ولكن الانباط ولوا وجوههم في أيام ازدهارهم ، نحو حضارات أخرى فاقتبسوا منها ما راق لهم ، ولم يقتصروا على الفن اليوناني والفن الروماني فقط بل كان لفنون بارثيا وأرمينيا والبلاد السورية أثر عليهم ، زد على ذلك ما نتوقعه أيضا من وراء صلتهم بمصر وبجنوبي الجزيرة العربية ٠

ومن المعروف أن مصر ، بعد أن ضعفت وخضعت لحكم الرومان ، واستبدلت دينها القديم بالمسيحية ، أراد مسيحيوها أن يبتعدوا قدر استطاعتهم عن الوثنية وكل ما يتصل بها ، وولوا وجوههم شطر بلاد أخرى وفنون أخرى وكان من يأتي للمساعدة في تشييد بعض الكنائس المسيحية وزخرفتها عمال من سوريا وارمينيا ، ولهذا فمن المعقول ، والاقرب الى المنطق ، أن نعتبر ما ظهر من تشابه بين الفن النبطي والفن القبطي راجعا الى أن كلا منهما استقى من مصادر واحدة ٠

وليس معنى رفض نظرية التأثير المباشر لفن الانباط على الفن القبطي في مصر انكار وجود أي علاقة بين الانباط وبين سكان وادي النيل ، بل الامر على العكس من ذلك ، فقد كانت بين الاثنين صلات غير قليلة ، وكان كثير من الانباط يقيمون في مصر ، وكان منهم من يحمل التجارة اليها عبر الصحراء ، وكان كثير من الانباط يعملون جنودا في نقط الحدود التابعة للجيش الروماني ، وعثر على كثير من النقوش النبطية في سيناء وفي الصحراء الشرقية ، كما عثر أيضا على معابد صغيرة شرقي قناة السويس ، ولكنها خالية من النقوش ويظن أنها نبطية ، ولكن هذا كله لا يقدم لنا أي دليل على أن الكنائس المصرية في القرن الخامس الميلادي أخذت بعض عناصرها الزخرفية في فن النحت من الفن النبطي الذي كاد أن يكون فنا مندثرا في القرن الرابع الميلادي ٠

الخط النبطي والخط العربي

أصل الان الى الموضوع الرابع ، وهو موضوع أصل الخط العربي ، وهل هو مأخوذ أو مشتق من الخط النبطي ٠

انتشر الخط الآرامي واللغة الآرامية انتشارا واسعا في أكثر بلاد آسيا العربية لمدة عدة قرون، وقد اتخذت شعوب كثيرة ممن تفرعت عن الكنعانيين أو الآراميين هذا الخط كوسيلة لتسجيل وثائقهم ٠

وعندما ضعف نفوذ الدولة السلوقية ، أخذت بعض الشعوب التي تعيش في المناطق الداخلية من البلاد ، مثل الانباط والتدمريين ، تعود الى ما كان لها من لغات أصلية ، وأخذت طرق كتابتهم تختلف فيما بينها حتى أصبح لكل قوم منهم أسلوبه الخاص ٠

واذا درسنا الخط النبطي بوجه عام ، نجد فيه بعض التغييرات التي نشأت تبعا لازمنة كتابتها ، واذا درسنا أيضا النقوش النبطية التي عثر عليها في الاردن وفي حوران ، وفي جبل الدروز ، وفي الحجر (مداين صالح) وفي صحراء سينا نجد اختلافات فيما بينها ، وذلك راجع الى بعض التطورات المحلية في كتابة بعض الحروف ٠

والنقطة التي أريد الحديث عنها الان ليست الخط النبطي أو أصله أو تطوره انما هي موضوع آخر متفرع منه ، فالفكرة السائدة منذ وقت غير قصير هي أن الخط العربي مشتق من الخط النبطي ، وهذا ما دافع عنه الدكتور خليل يحيى نامي في عام ١٩٣٤ ودعمه بأدلة متعددة ، وقد قبل آراءه عدد كبير من المستشرقين المتخصصين في هذه الدراسات وبينهم الدكتورة « نابيا أبوت » في كتابها الذي طبع عام ١٩٣٩ عن نشأة

الخط العربي الشمالي وتطوره في كتابة القرآن [١٦]

ومن بين العلماء الذين قبلوا رأي الدكتور نامي « الأب ستاركي » ولكن عالما محققا آخر وهو الدكتور « ميليك » (J. T. Milik) تقدم منذ سنوات قليلة برأي آخر اذ قال أنه عند بحثه عن أصل الخط السوريانى وجد أنه يمكن تفسير أصل كثير من الحروف العربية ، والخط العربي القديم بوجه عام اذا قارناها بالخط السوريانى وليس الخط النبطي ٠

ولكن قبل أن يعلن « ميليك » رأيه بسنوات كثيرة سبقه « أدولف جروهان » [١٧] في عام ١٩٥٤ الى التساؤل عما اذا لم يكن يوجد الى جانب الكتابات العربية التي عثر عليها في سوريا ، وفي زبد وفي حران ، مصدر تأثير آخر في العراق حتى يمكن تفسير بعض مميزات الخط الكوفي في النسخ القديمة من القرآن ، تلك النسخ التي كتبت في الكوفة ، وهي المدينة التي شيدت على بعد ثلاث كيلو مترات شمالي الحيرة وحلت مكانها كعاصمة في القرن الاول الهجري ٠

واذا رجعنا الى ما ذكره العرب أنفسهم عن أصل الخط العربي نجد أكثر من رواية وبينها كثير من التناقض ، ولكن احدى هذه الروايات، ويرجع تاريخها الى القرن الثاني الهجري ،جديرة بالذكر وقد لفت اليها جروهمان الانظار وهي ما رواه « البلاذري » في كتاب فتوح البلدان [١٨] ، ويقول فيها أنه قبل ظهور النبي عليه الصلاة والسلام وضع ثلاثة من قبيلة طيء هذا الخط الذي أخذوه عن السوريان في « بقا » وهي بلدة على مقربة من الحيرة عاصمة اللخميين وتبعد حوالي ١٦٠ كيلو مترا الى الجنوب من بغداد ، وأنه سرعان ما انتشر هذا الخط ووصل الى الحيرة والى الانبار [١٩] ٠ وأخيرا أتوا بهذا الخط الى مكة ، أتى به أحد المسيحيين ، وكان يسمى « بشر » وهو أخو الاكيدر أحد زعماء كندة ،وكان في الدومة ٠

ويناقش ستاركي هذا الموضوع في ملحق قاموس التوراة [٢٠] ، ويقول أنه لو صرفنا النظر عن النظرية القائلة بأن الخط النبطي هو أصل نقش « زبد » ونقش « حران » [٢١] ، فان الامر يصبح أكثر سهولة ، ونستطيع أن نقول أن الخط العربي في عصوره الاولى مشتق من الخط السوريانى الذي كان مستخدما في عاصمة اللخميين ٠

ومما يدعو الى الاسف أن المنطقة التي تقع فيها عاصمة اللخميين لم تحفر حفرا علميا منظما حتى الان ، وبالتالي لم يعثر فيها على نقش واحد من هذا النوع مع أننا نعلم علم اليقين ، أن الكتابة كانت معروفة في هذه المنطقة وقد ذكر ياقوت نص نقش تأسيس الدير الذي شيدته الاميرة المسيحية « هند » أم الملك اللخمي « عمرو » الذي عاش في منتصف القرن السادس الميلادي ٠

وعلى أي حال ، فمن المعقول أن يكون في بلاط ملوك الحيرة محررون للرسائل وأنأولئك الكتاب كانوا يستخدمون الخط الديواني في كتابة ما يلزم تحريره الى رعايا اللخميين الذين يتحدثون بالعربية ، وكان منهم الوثنيون والمسيحيون ٠

ولكن قبل أن نميل الى الاخذ بالرأي الذي يقول بالبحث عن أصل الخط العربي عند اللخميين ، أو نرجحه ، يجب أن لا ننسى أنه في الوقتالذي ازدهر فيه اللخميون كانت هناك دولة أخرى عربية الاصل ، وهي دولة الغساسنة التي كانت

---

١٦) N. Abbott The Rise of North Arabic Script and Its Kuranic Development (Chicago, 1939, p. 4 and pl. V.

١٧) A. Grohmann, Einfuhrung and Chrestamathis zur arabischen Papvrus Kund, (1954) p. 90

١٨) البلاذري — فتوح البلدان (طبعة القاهرة ، ١٩١١) صفحة ٤٧٦ ٠

١٩) معسكر الساسانيين في العراق في ذلك الوقت : وهو على مسافة ٧٠ كيلومترا غربي بغداد ٠

Starcky, Suppl, au Dictionnaire de la Bible, Col. 1933

٢١) « زبد » في جبل شبت جنوب شرقي حلب والنقش المشار اليه مكتوب بثلاث لغات وهي اليونانية والسوريانية والعربية وتاريخه عام ٥١٢ ميلادية ٠ اما نقش حران فهو مكتوب باليونانية والعربية وتاريخه ٥٦٨ ميلادية ٠

على صلة طيبة ببيزنطة وكان يعهد اليها الرومان بحراسة تخوم سوريا • فبالرغم من العثور على نقوش كثيرة في منطقة بلاد الغساسنة ، ويرجع تاريخها الى قبيل ظهور الاسلام ، فانا لا نجد من بين تلك النقوش ما يمكن أن نقول عنه أنه من نوع الخط الذي كتب بـه نقش زبد أن نقش حران •

وقد أتيحت لي هنا في عمان فرصة مناقشة هذا الموضوع مع زميلي الدكتور نامي وتدارسنا النقط التي أثارها جروهمان ومبليك وتعقيبات ستاركي وتردده فقال أنه بالرغم من ذلك كله فما زال مؤمنا بصحة ما نشره قبل خمسة وثلاثين عاما وهي أن الخط العربي مأخوذ مـن الخط النبطي ووعدني بأنه سيعاود الكتابة فـي هـذا الموضوع •

والان ، وقد أصبح موضوع أصل الخط العربي مفتوحا للمناقشة فعلينا أن ننتظر بعض الوقـت حتى تظهر وثائق جديدة ، أو تكتب بحوث جديدة، لنتمسك بالنظرية القديمة وهي أن الخط النبطي هو الاصل أو نقبل النظرية الجديدة وهـي أن الخط العربي مستمد من الخط السوريانى ، ذلك الخط الذي كان يستخدمه كتاب الديوان في بلاط ملوك الحيرة •

هل اندثرت لغة الأنباط اندثارا تامـا ؟

وأخيرا أصل الى آخر نقطة في هذا البحث ، وهي ليست في حقيقة الامر موضوعا استجد فيه شيء أو تغير فيه رأي ، ولكنه اقتراح أو شبـه توجيه أرجو أن يضعه أحد القراء في ذهنه ويوليه شيئا من عنايته ، وهذا الموضوع هو التساؤل عما اذا كانت لغة الانباط قد تبخرت واختفت تماما من الوجود أم أن هناك أملا في وجود بقية منهـا ؟

لقد انتشر الاسلام بين الانباط وانتشرت معه لغة القرآن ولهجات القبيلة أو القبائل التي خرجت لنشر الدعوة ، فهل قضى ذلك على كل أثر لديانة الانباط ولغتهم وعاداتهم بين يوم وليلة ؟ الجواب على ذلك أن مثل هذا الامر لا يمكن حدوثه أو توقعه ، اللهم الا في ظروف نادرة غير مألوفة ، فعندما يغير الناس دينهم ، ويتركونه الى دين جديد ، تبقى بعض مظاهر الدين القديم ،خصوصا بين الطبقات الساذجة والفقيرة التي لم يكن لها نصيب من تعليم ، وكذلك الامر في شأن العادات فان تغييرها يحتاج الى قرون طويلة ، وخصوصا اذا لم يكن فيها ما يتعارض مع الدين الجديـد تعارضا صريحا •

ولكن اذا وصلنا الى موضوع اللغة فأنا نجد أنها تستمر فترة طويلة مستخدمة بين أولئـك الناس ، في صورة من الصور ولو على نطـاق ضيق • ولنضرب مثـلا بمصر ، لقـد دخلهـا الاسلام ، ومعه كثير من القبائل العربية التـي سرعان ما انتشرت في أكثر أرجاء البلاد ، ولم يمض وقت كبير حتى أصبحت اللغة العربية لغة الدواوين ، ولا شك أيضا في أنها كانت الى حد كبير لغة التخاطب بين الوافدين الجدد ومـن اختلطوا بهم من أهل البلاد ، فهل اختفت اللغة القبطية بمجرد انتشار اللغة العربية ؟ والجواب على ذلك بالنفي ، فقد ظل الكثيرون من سكان مصر من مسيحيين ومسلمين يستخدمون اللغة القبطية كلغة للتعامل حتى القرن الثانـي عشر الميلادي على الاقل ، كما بقيت بعض قرى الصعيد تتحدث بها كلغة تخاطب ، وليس كلغة الكنيسة القبطية فقط ، حتى القرن الثامن عشر بل واوائل القرن التاسع عشر اذ نعرف مما كتبه علمـاء الحملة الفرنسية على مصر ، أن القائد «بونابرت» أظهر رغبته في سماع اللغة القبطية يتحدث بها اثنان فيما بينهما •كان ذلك عام ١٨٠٠ فاحضروا له من بلدة قفط في الصعيد رجلا وزوجته ، وكانا متقدمين في السن • ومع التسليم بأنه لا يوجد الان في مصر عائلة واحدة تتكلم فيما بينها اللغة القبطية كلغة متوارثة عن الاجداد فان في اللغة العربية المستخدمة الان في مصر ، سواء فـي الدلتا أو في الصعيد ، مئات من الالفاظ التي ترجع الى اللغة القبطية ، وهي بدورها من اللغة المصرية القديمة ، ولا يقتصر الامر على المفردات بل نجد أثر لغة البلاد القديمة في تركيب الجمل في بعض اللهجات ، وهي غريبة علـى اللغـة العربية الفصحى •

وليس الامر قاصرا على ذلك ، اذ يوجد حتى الان في مصر ، في بعض جهاتها النائية لغات أخرى غير اللغة العربية ، يتخاطب بها بعض السكان الذين ظلوا لا يعرفون غيرها ومن يتعلم منهم اللغة العربية يستخدمها كلغة ثانية مثل لغة أهل سيوة ولغة البشارية ولغتين في بلاد النوبة وهما الماتوكي والفيادتشي ٠

ونجد الشيء نفسه ، في العراق فما زال البعض منهم يستخدمون مفردات كثيرة من لغة البلاد القديمة في اللهجات الدارجة ، وفي العراق ، وفي سوريا ما زالت توجد بعض القرى التي ما زال أهلها يستخدمون الآرامية أو السوريانية فيما بينهم ٠

ولو أردنا ضرب أمثلة أخرى لوجدنا الكثير من ذلك في جهات مختلفة من العالم بين مجموعات تعيش في شبه عزلة في بعض المناطق الجبلية أو النائية لان أمثال هذه المجموعات الصغيرة تعيش منطوية على نفسها بعد أن غلبها على أمرها الوافدون الجدد وأجلوهم عن أرضهم فلم يجدوا أمامهم الا الانطواء على أنفسهم ٠

كان الانباط يعيشون في بلاد أدوم ومؤاب ، وكانت لهم لغتهم وديانتهم وعاداتهم فهل قضى وصول العرب المسلمين على ذلك كله ؟ وهل يمكننا أن نسلم بحدوث ذلك ونحن نعرف سماحة المسلمين الفاتحين ، ونعرف وعورة المنطقةونعرف ايضا أنها منذ ذلك الفتح لم تشهد عصرا مزدهرا شبيها بأيام الانباط ، أو حاولت أي حكومة من الحكومات صبغ المنطقة بطابع معين منذ الفتح العربي حتى قبيل العصر الحاضر ٠

ومما يدعو للاسف ، بل ومما يدعو الى الحزن ، أنه لم يتم عمل أي مسح لغوي للهجات الدارجة في أي بلد عربي ، ولم يقم أحد في الاردن حسب ما أعلم ، بعمل أي دراسات انثروبولوجية جادة، أو أي دراسات لغوية في منطقة بلاد أدوم ومؤاب حتى يمكننا الاعتماد عليها لاجابة السؤال الذي طرحته ، وفي اعتقادي أن هناك أملا كبيرا في وجود أثر للغة الانباط وعاداتهم بين سكان المنطقة ٠

يلاحظ بعض زائري آثار البتراء وجود بعض السكان الذين يعيشون في المقابر المنحوتة في الصخر ، وقلما يأبه الزوار لوجودهم اذ يظنون أنهم من حراس الآثار وعائلاتهم ٠

وغالبا ما ينتهي تفكير الزائر عند هذا الحد ، ولكن موظفي دائرة الآثار وسكان وادي موسى والعلماء المهتمين بدراسة حضارة الانباط يعرفون أنه يوجد بعض مئات قليلة من السكان الذين يعيشون في بعض المقابر الصخرية وفي شعاب الوديان ، فاذا سأل سائل عن اسم القبيلة التي ينتمون اليها لا يسمع الا أنهم قوم فقراء اسمهم « البدول » وانهم لا ينتمون لاي قبيلة معروفة وانهم ، هم وأجدادهم من قبلهم ، يسكنون في هذه المنطقة في الكهوف الصخرية فاذا ألح السائل لمعرفة المزيد عنهم لم يسمع الا بعض جمل غير محددة عن مدى أمانتهم أو اتباعهم لشعائر الدين، وغرابة عاداتهم ونفورهم من غيرهم من الناس ٠

واعترف أن هذا كان كل ما عرفته عنهم حتى شهر نوفمبر ١٩٦٧ عندما قرأت كتاب اللواء محمد علي العجلوني « ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى » ـ عمان ، ١٩٥٦ فاذا به يذكر « البدول » ٠ كان اللواء العجلوني من أوائل الضباط الذين انضموا الى جيش الملك حسين بن علي ، وخاض المعارك التي دارت بينهم وبين الاتراك ، ويذكر العجلوني في ذكرياته أن بعض رجال الجيش ، وهو منهم قضوا ثمانية وعشرين يوما في البتراء استعدادا لمعركة معان وأنهم كانوا يضعون أمتعتهم في الخزنة ٠ ونقرأ في صفحة (٥٥) ما يأتي ، أنقله كما هو :

« وكهوف بتراء آنئذ مليئة بالمهاجرين الارمن الذين نفاهم الاتراك الى الجنوب فكنا نختلف اليهم ونبتاع منهم البندورة المجففة وهم يغسلون لنا ألبستنا ، وكنا نستمع أحيانا الى الذين يحسنون الموسيقى التركية منهم ونعاملهم بالرفق والانسانية ٠

« ومن غريب المصادفات أنهم وهم يجهلون اللغة العربية كانوا جيرانا لجماعة من الناس ما هم الا رواسب جنسيات قديمة مجهولة الاصل

والارومة لا ينتسبون في الحقيقة الى العرب ولا الى الانباط القدماء الذين عمروا البتراء وكانت لهم حضارة مزدهرة فيها ·

« والذين يتكلمون العربية من هؤلاء الجماعة فكلماتهم لا تزيد عن المايتين لفظة على وجه التقريب · وقد يغلب على الظن بأنهم التقطوا تلك الكلمات القليلة من رعاة الماعز البدو الذين يرتادون تلك الجروف العميقة في فصل الشتاء على ممر السنين ·

« وهذه الجماعة من الناس منعزلة منذ القدم عن عشائر البدو وعن القرى ، ومساكنها الكهوف والمغاور تلجأ اليها (كالوحوش تقريبا) ولا تعرف عن مدينة العصر الحاضر الا النزر اليسير · ويلبسون أسمالا بالية ، ولا فراش ولا متاع لهم ، ولا يمارسون زراعة أو غيرها · وفي فصلي الربيع والصيف ينام أفراد هذه الجماعة بالعراء ، وفي النهار يستظلون أفياء الشجر في سفوح الجبال التي تشرف على وادي عربة ·

« ولا يعرفون نظام الأسرة وليس لهم مذهب يدينون به (فيما يظن) ويتفاهمون بتلك الالفاظ العربية القليلة وبالاشارات ·

وفيهم طبع وحشي فهم ينفرون من الناس واذا رأوا أحدا قادما عليهم ذعروا منه وتفرقوا الى الكهوف وتواروا بين الصخور » ·

ويضيف العجلوني قائلا :

« وقد فطن (بيك باشا) الى البدول هؤلاء فكان يرسل اليهم الكساء والغذاء وصاروا يطمئنون الى الجنود شيئا فشيئا حتى سكنوا اليهم وألفوا الاختلاط مع الناس والاستئناس بزوار هذا المكان التاريخي الشهير ·

« وعرف بيك باشا الانكليز والسياح بهم ووظف بضعة أشخاص منهم أدلاء للسياح »

يمثل هذا الوصف حالتهم فيما بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٤ ولكن هل تغيرت حالتهم كثيرا منذ ذلك التاريخ ؟ لقد طرأت على حياتهم الاجتماعية تطورات غيرقليلة وخدم الكثيرون منهم في الجيش وسافروا الى مختلف بلاد الاردن والى خارج الاردن ، وزادت صلتهم بدائرة الآثار ، وأصبح الكثيرون منهم يعرفون القراءة والكتابة· ولكن ما زال أغلبهم فقراء يعيشون في عزلتهم وان كانت حياتهم الاجتماعية قد تحسنت بعض الشيء نتيجة لانتشار بعد مظاهر المدنية في المنطقة كلها بوجه عام ·

لقد اتصلت بالبدول في أواخر شهر نوفمبر ١٩٦٧ وعرفت من مشايخهم بعض ما كنت اريد الوقوف عليه ، وهم يتكونون من ست عائلات ، ولكل عائلة (ويسمونها «خمسة» تشبيها بأصابع اليد الواحدة) زعيم من أبنائها ، وزعامة العائلات الستة في الوقت الحاضر في عائلة الفقير وزعيمهم هو الشيخ هويمل الفقير ، وعدد « البدول » كلهم يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة شخص ·

ولست اريد الحديث عن البدول ووصف عاداتهم ، فليس هذا هو غرضي الان وانما اريد فقط أن أقول أن اتصالي بهم زادني ثقة بان فرصة دراستهم كمجموعة ما زالت سانحة ميسورة ، كما زادني هذا الاتصال ثقة بأن هؤلاء البدول ، وهم على وشك الانقراض ليسوا الا بقية من سكان البلاد الاصليين الذين غلبتهم قبائل البدو على أمرهم ففروا بأرواحهم ليعيشوا في أماكن موحشة لا يطمع فيها أحد ·

تختلف لهجة البدول عن لهجة جيرانهم ، ولهم عادات خاصة بهم ، ويعبرون عما يريدون قوله بكلمات لا يكاد يفهمها جيرانهم ، ويصحبونها بهمهمات واشارات خاصة بهم ، وفي رأيي أنه اذا كان هناك أمل في معرفة ما عساه أن يكون باقيا من لغة الانباط أو عاداتهم ، فان ذلك يمكن تحقيقه بدراسة لهجات البدول وسكان الاغوار ، ودراسة عاداتهم ونظامهم الاجتماعي دراسات علمية صحيحة ، ويا حبذا لو كان من يقوم بها من أبناء الاردن الذي يعرف لهجات البدو ، وبخاصة المنطقة الجنوبية من البلاد ·

خاتمة

والان ، وقد عرضت بعض ما كنت أريد عرضه

من موضوعات أصل الى نهاية هذا البحث مؤكدا أنه برغم ما تم من تقدم في الدراسات النبطية في السبعين عاما الاخيرة فأنا ما زلنا بعيدين عن اليوم لذي نستطيع أن نقول فيه أننا نعرف كل ما نريد معرفته عن الأنباط ·

لقد أولت دائرة الآثار منطقة البتراء وغيرهامن المناطق كل ما تستطيعه من عناية في حدود ميزانيتها المالية المحدودة ، ولكن ترميم الآثار وصيانتها والحفر عما لم يتم الكشف عنه سواء في البتراء ، أو في غيرها ، يحتاج الى مجهودات أكثر والى ميزانية أضخم فعسى ألا تضن الدولة بذلك ·

ان آثار البتراء فريدة في نوعها ، واذ سألني سائل في أي مكان أضعها بين آثار الحضارات المختلفة لما ترددت في القول بأني أضعها في الصف الاول بين الآثار الفريدة في بلاد الشرق وغير بلاد الشرق ·

ان كل أثر في أي بلد عربي انما هو ملك للامة العربية كلها ، تعتز به كجزء من تاريخها ، والدراسات النبطية وآثار البتراء وغيرها من آثار الاردن ليست ملكا لابناء الاردن وحدهم بل يشاركهم في الاعتزاز بها كل عربي عاش أجداده في هذا الوطن ، وهي جديرة بكل عناية ورعاية، وارجو من كل قلبي أن يكون الوقت قد حان لتقص علينا رمال الصحراء ما احتفظت به من أسرار ، وتكشف لنا عن الكثير مما نجهله حتى الان عن الانباط وغير الانباط ·

الدكتور أحمد فخري